# نظريات العقل *

مسألة العقل هى مسألة المعرفة ، وهى مبنية على هذا السؤال : هل تتلقى النفس العلم وهى لا تملك من أمر تصريفه شيئًا ؟ أم أنها قوة إيجابية لها ذاتها المبدعة المستقلة عن التجربة ؟

وقد بدت تباشير هذه النظرية عند الأولين فى تفريقهم بين المعقول والمحسوس ، وفى تعليل بعضهم لجهل الناس باستسلامهم إلى الحواس وما تأتى به الحواس ؛ وكان هيراقليط يقول إن الحكمة هى معرفة العقل ، وكان يعتبر جوهر العقل غير متميز عن جوهر الوجود ـ الذى كان يعتقد أنه النار الأولى . ومما دفع بهؤلاء الفلاسفة إلى الازدراء بالحواس ، أنه كانت لهم نظريات ميتافيزيقية عن الوجود وأصله لم تكن الحواس لتستسيغها أو تقيم الدليل عليها .

فلما جاء سقراط ، قال بأن الحقيقة فطريةٌ فى الإنسان ، والدليل على ذلك أننا عند تأمل أفكارنا وأعمالنا تنكشف لنا جهالاتنا ، ومعرفة الجهل تدل على وجود الحقيقة فينا ؛ ولولا ذلك ما جاز لنا أن نحكم على شىء بأنه جهل وخطأ لأن ذلك يستلزم أن يكون لنا فكرة عن الحق والعلم ،

* المجلة الجديدة ، يوليو ١٩٣٥م .

والسبيل إلى معرفة هذا العلم هو تأمل النفس والاستعانة بالاستقراء والتعريف والقياس .

وسار أفلاطون على نهج أستاذه ، ولكنه كان يعتقد أن التذكر هو مفتاح المعرفة الحقة ، لأنه كان يعتقد أن الإنسان ـ قبل هبوطه إلى هذا الوجود ـ كان يعيش فى عالم مثالى ، وأنه فى حياته السفلى هذه يحتفظ بالحقائق الأولى ، ولكنها تكون فى سبات ، وتعود إليها اليقظة إذا امتحن الإنسان العالم المحسوس ، فأدى امتحانه هذا إلى تذكر الحقائق الأولى ؛ فالعلم تَذَكُّر .

واتفق أرسطوطاليس مع أفلاطون وسقراط فى رأيهما أن موضوع العلم هو الماهية أو ذات الشىء ، ولكنه تَبَسَّطَ فى الشرح فقال إن العقل عقلان : سلبى وإيجابى ( العقل الفعال ) مثلهما مثل الطبيعة ، فيها المادة التى يمكن أن تتخذ أى صورة ، وفيها العلة الفاعلة التى تحدد للأولى صورة خاصة ؛ أما العقل السلبى فهو مادة الفكر ، وهو يتصل دائمًا بالتجربة والإحساس ، معتمدًا على الاستقراء فى استخلاص الأفكار العامة ، وعلى القياس فى الاستنتاج من هذه الأفكار . ولكن هذه العمليات تحتاج إلى مبادئ عقلية تنظمها وتهيئ لها اليقين ، لأن العلم لا يقوم على التجربة وحدها . . وهذه المبادئ تعرف بالبداهة ، ووسيلة البداهة العقل الفعال ؛ فالعقل الفعال هو الذى يبين عن العقول فى محسوسات العقل السلبى ، وهو إذا انعدم انعدمت معه كل حقيقة عقلية وتَعَذَّرَ العلم .

والفلسفة الرواقية والأبيقورية تعد نواةً للفلسفة التجريبية ، وقد أبرزت الرواقية عمل الإرادة فى التفكير وتكوين العلم ، أما الأبيقورية فجعلت من الإحساس أساسَ كل معرفة . ثم جاءت الأفلاطونية الحديثة والفلسفات المسيحية ، وهى فى جملتها لم تبدع جديدًا فى عالم الفكر ، وعاشت على حساب الفلسفات القديمة ، وكان العلم حينذاك أن يجد الباحث فى الحوادث المتغيرة ماهيةً ثابتةً تبلغه ما يريد من معرفة الله .

وفى القرن السادس عشر تغير مجرى العلم ، وجعل ديكارت من العقل علة الحقيقة والعلم ، فكان متمماً فى الواقع لأفلاطون . وتفسير ذلك أن فلاسفة ذلك القرن كانوا سيئى الظن بالقرون الوسطى ، غير مؤمنين بجلالها العظيم ، فمالوا إلى التحرر من قيودها بالشك العقلى ، وكان طبيعيًّا بعد ذلك أن يتحروا الوضوح والجلاء والبساطة فى فلسفاتهم . ووجد ديكارت فى العلوم الرياضية مثالاً كاملاً للعلم اليقينى الواضح الجلى ، فأراد منهج الفلسفة ـ وكانت تشمل بحث الله والنفس والطبيعة ـ على أن يكون على مثال المنهج الرياضى ، فيسير العقل فيه من البسيط إلى المركب ، من المبادئ العقلية البديهية اليقينية إلى الظاهرات المركبة ؛ فهنا مبادئ عقلية تكشفها البداهة ، وعلاقات ذهنية تربط بين هذه المبادئ وتركّب منها العلم ، وتُوجدها حركة فكرية هى الاستنتاج القياسى ؛ فالعقل هو الذى يقيم بناء العلم بالكشف عن مبادئه و إيجاد العلاقات بينها .

فديكارت كان يعتقد أنه توجد بالعقل أفكارٌ بسيطةٌ جليةٌ واضحةٌ نعرفها بالبداهة والتأمل الباطنى ، فإذا بلغنا معرفتها استطعنا أن نستنتج منها علم النفس وعلم الطبيعة ؛ وهذه الأفكار مثل النفس والامتداد وغيرهما .

وقد يعترض معترض فيقول : لك أن تعتقد أن أفكار النفس والامتداد أفكار بسيطة جلية ، وأنها توجد فى النفس بالفطرة بحيث إن البداهة تكفى للكشف عنها ، ذلك أن تستنتج من هذه الأفكار ما شاء لك الاستنتاج حتى يخيل إليك أنك أنشأت علماً . . ولكن مَن يدريك أن هذه الأفكار تقابل حقائق فى الوجود الواقعى ، فتعبر فكرة النفس عن نفسٍ حقيقيةٍ فى الإنسان ، وفكرة الامتداد عن ماهية ثابتة تكون هذه الظاهرات المحسوسة أعراضها ؟ وما الذى يمنع من أن تكون جميع هذه الأفكار أوهامَ نفسٍ خلقها الفكر من عندياته ؟

وديكارت لا يقيم دليلاً فى الواقع على إثبات واقعية هذه الأفكار ، ولكنه يبرر حقيقتها ، فيقول إن معنى الشك فى حقيقة هذه الأفكار هو أن الله يخدعنا ويرمى بنفوسنا فى الضلال ، لأنه هو الذى خلق عقولنا ، وهو الذى جعلها بحيث تعتقد أن ما تراه فى الفكرة حقيقة فى الوجود ؛ ولو صح ذلك فالله خادع . ولمّا كان هذا الوصف مما يُنَزَّهُ عنه الله ، ولمّا كان الله صادقًا ولا يمكن أن يرقى الشك إلى صدقه ، فاعتقادنا فى أفكارنا حق ؛ وهكذا يضمن الله اليقين العلمى ، ويتغلب على الشك الذى يُهاجَم به عادةً المذهب العقلى .

وهذا المنهج العقلى أو الرياضى الذى قال به ديكارت اتبعته المدرسة الديكارتية التى كان من أبرز فلاسفتها ملبرانش وسبينوزا .

ويناقض الفيلسوف الإنجليزى لوك هذه المدرسة كل التناقض . فعند ديكارت الرياضة هى مثل العلم اليقينى ، والقياس مثل المنهج الحق ؛ أما لوك فلا يرى أمثل من علم الطبيعة ولا منهج الاستقراء ، وقد هاجم ما سماه ديكارت بالأفكار الفطرية أو المبادئ العقلية التى تولد معنا ، قائلاً إن هذه الأفكار لا يمكن أن تكون طبيعية ، بدليل أن الأطفال والهمج لا تدرك لها معنى ، وأنها تحتاج للتعلم والاجتهاد حتى يستقر معناها فى النفوس .

وقد شَبَّهَ النفس بلوحة ملساء ، وقال إن التجربة والحواس هى التى تملأ تلك اللوحة بمختلف الصور والمعانى ، وإن العقل موهوب بقوة التمييز والتركيب ، فيستطيع أن يكوّن من هذه الأفكار البسيطة أفكارًا عامة .

والتحليل والتركيب يمكن أن يفسرا كيفية تكوين تلك الأفكار التى دعاها ديكارت فطرية ، فهو يفسر مثلاً فكرة الله بأنها أتت من ملاحظة الإنسان لنفسه ومَلَكَاته ، وتخيّله هذه القوى فى درجات غير متناهية من القوة والكمال ، فينتهى بتصوّر كائن كامل ، وقد يخيل إليه ـ كما فعل ديكارت ـ أن فكرته بسيطة فطرية تنكشف بالبداهة العقلية . فالعقل يكوّن بالتجربة ـ الخارجية والداخلية ـ جميع ما فى عقلنا من أفكار.

وقد حاول ليبنتز أن يوفق بين هاتين الفلسفتين ، وكان رياضى النزعة مثل ديكارت ، ولكنه أراد أن يوسع آفاق العقل وينوّع مناهجه .

وقد وافق لوك على نقده للأفكار الفطرية التى بنى عليها ديكارت فلسفته ، فحَقٌّ أن جهل الأطفال والهمج لهذه الأفكار يشكك فى وجودها الفطرى فى الإنسان . ولكنه لاحظ من ناحية أخرى أن التجربة والملاحظة لا يكفيان لتفسير جميع الحقائق العقلية ، فالتجربة مثلاً فردية ، فهى نسبية ، ولكن توجد حقائق عامة ضرورية ، أى أن العقل لا يمكن أن يتصوّر نقيضها . فالمبادئ الفطرية موجودة ولكنها لا تبرز إلى الشعور فى كل حين ، وإنما لا بد لها من التجربة لتجعلها حقيقة معلومة ، ولتخرجها من القوة إلى العقل .

والحقائق تنقسم إلى نوعين ما بين فطرية ، وآتية من التجربة أو حقائق الوقائع ؛ والأولى ضرورية شاملة ، نقيضها محال مثل ٢ + ٢ = ٤ ، والثانية هى التى تُعرف بالحواس أو الشعور مثل أى واقعة تاريخية .

أما دافيد هيوم فيستأنف فلسفة لوك ، ويُرجع كلَّ المعرفة إلى التجربة الخارجية والداخلية ، وينكر الأفكار الضرورية إنكارًا تامًّا ؛ ويزيد على لوك فيقول أنْ ليس للعقل قوةٌ فعالةٌ أو قدرةٌ له على التركيب أو التحليل ، ولكنه فى الجملة يخضع لقوانين تتصرف فيه كما تتصرف القوانين الطبيعية فى الطبيعة ؛ فتَصَوَّرَ النظام النفسى على مثال النظام الطبيعى ، وفرض

وجود قوانين تسيطر على العالم النفسى كقانون الجاذبية الذى يحكم فى الظاهرات الطبيعية ؛ وهذه القوانين النفسية هى قوانين التداعى والترابط ، هى التى تجعل من مجموعة الإحساسات والأخيلة والعواطف نظامًا عمليًّا يوهمنا بانتظامه أنه يعتمد على مبادئ فطرية ضرورية نقشها الله فينا ، وقوانين الترابط هى التشابه والاقتران فى الزمان والمكان والسببية ؛ وعلى أساس ذلك يفسر قانون السببية فيقول إن معنى هذا القانون هو أننا عندما نلاحظ مقدمات معينة نتوقع نتائج معينة ، فمن أين لنا هـذا التوقع ؟ أهو آتٍ من طبيعـة الأشيـاء ؟ كلا . . لأننا لا نرى فى الواقع إلا ظاهرات متتالية ، ولا نلاحظ قوةً ضرورية تجعل السابق علةً جبريةً تُحدِث اللاحق . فمن أين لنا هذا الاعتقاد إذًا ؟ . . من قوانين الترابط والعادة ، فنحن نرى الحادثتيْن المتتاليتيْن ـ اللتيْن نربطهما بالسببية ـ دائمًا معًا ، وهو اقترانٌ فى الزمان والمكان ، ثم إننا نرى دائمًا أبدًا نفس المقدمات ونفس النتائج . . وهذا تشابه ، وبالتكرار المتتابع تتكون العادة ونتوقع تأثيرها ، وبفعل القوانين المذكورة نستنتج نتائج معينة عندما تظهر لنا مقدمات معينة .

وجملة القول أن العقل هنا لا عمل له إلا تَلَقِّى مختلف الإحساسات والمشاعر والتأثر بالقوانين المترابطة .

وقد تَلَقَّى كانط هذه الفلسفات فلم يقتنع بادّعاء الميتافيزيقا أو بفسيولوجية العقل كما تَصَوَّرَها لوك ودافيد هيوم . وقد وضع المسألة التى

طال النزاع عليها بين العقليين والتجريبيين فى هذا السؤال : هل المعرفة العقلية Apriori ( المستقلة عن التجربة ) ممكنة ؟ وأجاب بالإيجاب ، ومَيَّزَ منها ثلاثة أنواع :

(١) القضايا الرياضية .

(٢) مبادئ علم الطبيعة .

(٣) القضايا الميتافيزيقية (على الأقل فى رأى مَن يؤمنون بالميتافيزيقا).

وكان يرى أن العقل يتصور الأشياء فى حدود طبيعته ، وأنه يقدّرها من خلال قواعده الطبيعية ( أو صوره ) ، ولكن هذه القواعد الأولى لا يستعملها العقل إلا عندما تقدم له التجربة مادة المعرفة .

ومن هنا يتضح لنا أنه مَيَّزَ بين شيئين فى المعرفة : مادة المعرفة ، وهو ما تأتى به الحواس ؛ وصورة المعرفة ، وهو ما تضيفه النفس إليها . فالمعرفة التجريبية هى امتزاج المادة بالصورة ، أو هى المادة كما يراها العقل خلال صوره . وهذا هو موضع الطرافة عند كانط ، فهو يريد أن يقول إن علم الأشياء لا يقدم لنا الأشياء كما هى فى ذاتها ، ولكنه ليس أوهامًا وصورًا لا تتعدى حدود العقل . .

هو يعرض لنا الوجود خلال صور العقل ، يعطينا الوجود كما يمكن أن نتصوره على قدر طاقة القوانين العقلية . وعلى ذلك فهو يختلف عن أتباع الإيديباليزم .

كذلك الصور العقلية عند كانط تختلف عن الأفكار الفطرية عند ديكارت وليبنتز لأن العقل عند المدرسة الديكارتية يستطيع أن يدرك الماهيات كالله والنفس ، أما الصور العقلية فهى ـ قوانين العقل بوجه عام ـ ليس لها موضوع خاص ، وإنما جميع الظاهرات التى تتصل بنا تخضع لها وترتبط تبعًا لها .

وقد تكلم على ثلاث درجات من المعرفة : ما تقدمه الحواس ، وهو الموضوع أو الظاهرات ، والعقل التجريبى ، وهو الذى يخلق المبادئ والصور لربط الظاهرات ؛ والعقل المجرد ، وفى صميمه ميل نحو الوحدة ، فهو يتجاوز حدود التجربة ويخلق مسائل لا يمكن حلها . ثم يأخذ كانط بعد ذلك فى عرض الصور العقلية وإقامة الدليل على عجز العقل عن بلوغ المطلق أو معرفة ماهيات الأشياء .

وبعد كانط اتصفت الحقائق الأولية بأنها شاملة وضرورية ، وذلك يرجع ـ كما نعلم ـ إلى أنها صور العقل ، فهى لا يمكن أن تتصور على نحو آخر ، ولو أنها كانت نتيجة للتجربة لما أمكن أن تتصف بالشمول والضرورة ، لأن التجربة تعرفنا بحالة خاصة فى زمن خاص ؛ أما تقرير القانون فى جميع الأحوال وفى جميع الأزمنة فمقرر بالعقل وليس بالتجربة ، ولكن المدرسة التجريبية الإنجليزية التى خلفت مدرسة دافيد هيوم لم تسلم بهذا التفسير ، وإن اعترفت بوجود اعتقاد عام يصدق فى هذه الحقائق العامة الضرورية . وقد فسرها ستيوارت ميل تفسيرًا سيكلوجيًّا ،

فقال عن الضرورة إن كل فكرتين توجدان معًا أو متواليتيْن تستدعى الواحدة الأخرى تبعًا لقانون تداعى المعانى ، وإذا وُجِدَ فكرتان دائمًا معًا ؛ يرتبطان فى العقل ونتصور ـ لدوام ارتباطهما ـ وجود علاقة ضرورية بينهما ؛ أما شيوع هذه الحقائق بين الناس جميعًا فراجع إلى أن البشر بطبيعتهم مسوقون لإتيان بعض تجارب خاصة تنتج عنها تصورات الحقائق الأولية ، وعلى ذلك فليست الحقائق الأولية صورًا عقلية فطرية ، إنْ هى إلا آثار التجربة التى خضعت لقانون التداعى ورَسَّخَها الزمن والتكرار .

ومن رجال هذه المدرسة سبنسر ؛ وقد اعتمد فى تفسير العقل ومبادئه الأولى على نظرية التطور والوراثة ، كما استعان بالفسيولوجيا ؛ ولم يختلف مع ستيوارت ميل اختلافًا جوهريًّا ، لأنه كان مثله يرى أن العادة والتداعى هما أساس تكوين الصور العقلية . ولكنه كان يقول إن التجربة الفردية لا تكفى ، وأَحَلَّ محلها تجربة الأنواع التى تؤتى ثمرها بفضل الوراثة ؛ فالحالات النفسية المرتبطة ببعضها ، والتى يتكرر حدوثها معًا تكوّن نزوعًا عامًّا يمكن أن يُتَوَارَثَ ويسير نحو الرسوخ الكامل حتى يأخذ صورته النهائية فى المبادئ العقلية .

والذى يوضح الوراثة أكثر أنه عند سبنسر الحياة النفسية توازى الحياة المادية وتتبادل معها الآثار ، بحيث إن كل حالة نفسية يقابلها مثلها فى الجهاز العصبى ؛ فارتباط فكرتين مثلاً يقابله اشتباكٌ فى المخ ، وبذلك

تتكون ـ على مرور الأجيال ـ المبادئ العقلية التى يظن أنها فطرية ، وهو ظن له ما يبرره .

ومما تجب ملاحظته هو أنه لمّا كانت هذه المبادئ نتيجةً للتجربة الموروثة آثارها ، ولما كانت التجارب قابلة للتغير ، فالمبادئ العقلية ليست نهائية كما يعتقد البعض .

ويبرر هذا رأى سبنسر عن العقل ، فهو عنده توافقٌ يسير دائمًا نحو الكمال بين النفس والطبيعة .

ووُجِدَ فى العصر الحديث نُقّادٌ للعقل ـ مثل كانط ـ غايتهم تحديد مبادئه ووضعها فى جدول منتظم منطقى ، ولكنهم يختلفون مع كانط فى فهمهم معنى العقل . فكانط كان يرى العقل مَلَكَةً خاصة مميزة عن الإحساس ، أما النقاد الجدد ، رينوفييه وهملن ولينخ ، فيوسعون فى مفهومه حتى يشمل الإحساس والإرادة .

وهؤلاء النقاد يتّحدون فى الغاية ، وهى ترتيب مبادئ العقل (المقولات) ؛ ويختلفون فى المنهج . . فرينوفييه ولينخ يعتمدان على التجربة فى تحديد المبادئ ، وهملن يعمد إلى التحليل العقلى .

ودوركيم يرى كذلك أن العقل مجموعة مبادئ ، يخضع لها الإنسان فى تصوّره للأشياء ، ولكن ليس يكفى أن نعرف ما هى هذه المبادئ وأن نعرف علائقها ، بل يجب أن نتوصل إلى أصولها الأولى ؛ وهذه الأصول عند دوركيم هى المجتمع .

فدوركيم يناقض الذين يقولون بأن الإنسان اجتمع لأن عقله هداه إلى تقدير فوائد الاجتماع ، لأنه يقرر أن العقل نفسه من صنع المجتمع .

والإنسان اجتماعى ، فهو ينشأ على تعلم آراء المجتمع واتخاذ طرقه وأساليبه فى التفكير ؛ فإذا انتبه إلى نفسه ولاحظ عقله ، وجد به مبادئ لم يصنعها بنفسه ولم تدخل فى حَيِّز تجاريبه ، فيسارع إلى التسليم بأنها طبيعية وأنها فطرية ؛ فقانون العقلية مثلاً يمكن إرجاعه إلى الاعتقاد الدينى أو إلى الدين الذى هو على رأس الظاهرات الاجتماعية عند دوركيم .

وشمول هذه المبادئ بين أشتات الناس المتباعدة يرجع إلى تشابه طبيعة المجتمع فى كل مكان ، بحيث إنه لا تنتج عنه إلا مبادئ واحدة لا يستطيع الإنسان أن يتصور وجود غيرها مخالفًا لها .

وظن دوركيم أنه بذلك وَفَّقَ بين التجريبيين والعقليين ، فالعقل ليس صناعة فردية ولا هو هبة طبيعية ، ولكنه وليد المجتمع .

وتعد نظرية وليم جيمس عن العقل رجوعًا إلى المذهب التجريبى ، ولكنه لم يَنْفِ عن العقل دوره الكبير فى المعرفة ، فهو يكمل المعرفة الحسية وينظمها ؛ فالمعرفة العقلية هى معرفة حسية مثقفة ، والتجربة اتصال مباشر بين العقل والحقيقة ؛ وليس معنى هذا أنها بلغت الكمال ، فالذى يعوقها هو عدم بلوغ التجربة إلى درجة الكمال ؛ وجيمس فى ذلك يختلف عن برجسون ، فبرجسون يرى أن الحقيقة الكاملة مستحيلةٌ على

العقل ، لأن العقل يغير حقيقة التجربة بما يوافق ما هو مخلوق له من تمهيد سُبُل العمل للإنسان ؛ فالعقل محدود ، ميدانه المادة ، وغايته العمل . ولا يكاد يعرف الأشياء إلا فى حالتى السكون والانفصال ، فإذا تطاول لفهم الحياة بَدَا عجْزُه . والسبيل إلى النفاذ فى أعماق الحياة هو البداهة أو البصيرة ، وهى معرفة مباشرة تجعلنا نندمج فى أعماق الحياة ، ونحس بحقيقتها . هى العبقرية المبدعة فى الفن والأخلاق . ومع كل ذلك فبرجسون لا يحتقر العقل لأنه يعتقد أنه إذا اتحد بالبداهة أوجد معرفة الحياة أو الفلسفة ، أما بمفرده فلا يقدر إلا على معرفة العلم أو المادة .

ويجدر بنا أن نشير فى الختام إلى رأى برنشفج عن العقل ، فهو لا يؤمن بالعقليين ولا بالتجريبيين ، ولا يتصور العقل كنظام كامل من المبادئ . فالعقل لا يوجد وهو تام الخلقة ، ولكنه يوجد شيئا فشيئًا ، وتتقرر له مبادئ وصور فى أثناء اتصاله بالتجربة ؛ وهو يسير نحو الكمال بخطوات مطردة .

فمن هذا نرى أن مسألة العقل ابتدأت بنقد الإحساس ، وتطورت إلى نظريات ديكارت ونقد كانط وتجريبية ستيوارت ميل . وفى العصر الحديث تَصَوَّرَ البعضُ العقلَ كنظام من المبادئ ، وحاول معرفتها سواء بالعقل أو بالتجربة ؛ وأرجعه آخرون إلى المجتمع ؛ وتكلم عنه غير هؤلاء وهؤلاء من حيث ما يؤدى من وظيفة فى الحياة الإنسانية .

obeikandl.com